الفصل الثانى

التحليل النفسى والمنهج العلمى(*)

* تمهيد.
* التحليل النفسي.
* المنهج العلمي.
* منهج التحليل النفسي.
* انتقادات التحليل النفسي من حيث المنهج.
* انتقادات التحليل النفسي من حيث قضاياه ومكتشفاته.
* خاتمـة.

(*) كتب هذا المقال بعد أن ألقى موضوعه كمحاضرة بدعوة من جمعية الفلسفة بالمغرب في برنامج محاضرات هذه الجمعية بكلية آداب الرباط في ١٩٧٧/٤/١٤، ثم نشر بمجلة «دراسات فلسفية وأدبية» المغربية – العدد الثاني – ١٩٧٧.

تمهيد:

نكاد نجزم بأنّه لم تتعرض مدرسة من مدارس علم النفس المعاصرة للهجوم الشديد مثلما تعرَّضت مدرسة التحليل النفسي وعلى رأسها منشؤها الطبيب النمسوي سيجموند فرويد. ولا ضرر في ذلك بطبيعة الحال إذا كان هذا الهجوم متسماً بالنقد الموضوعي، بعيداً عن الأهواء الذاتية، إذ من صالح كل من الفكر والعلم أن يظلاّ منفتحين قابلين للجدل، والاتفاق والاختلاف والأخذ والرد، حتى يندفعا خطوات نحو النضج والاقتراب من الحقيقة. لكن الضرر كل الضرر في أن يعمد المعارضون إلى المغالطة لإثبات وجهة نظرهم. وقريب من هذا أن يكونوا على جهل بما يقوله التحليل النفسي فيعرضون أفكاره عرضاً مشوهاً ناقصاً يتضح منه سوء القصد أو قلّة الفهم.

ويمكن أن نرجع المآخذ الرئيسية التي يأخذها، معارضو التحليل النفسي عليه إلى جانبين:

أولهما: خاص بمنهج التحليل النفسي في البحث والخروج بمكتشفاته بحجة عدم اتّصاف هذا المنهج بالعلمية والموضوعية.

ثانيهما: الاعتقاد ببطلان ما جاء به التحليل النفسي من مكتشفات.

ولا شك في أنَّ هذا الاعتقاد مبني أساساً على رأيهم في منهج التحليل

النفسي، إذ من الصعب الوصول إلى الحقيقة بمنهج غير علمي أو غير موضوعي.

وفي هـذا المقال تناقش أهم هذه المآخذ في هـذين الجانبين المتداخلين بشيء من الإفاضة حسب ما يسمح به المجال. ويحسن أن نقدم لهذه المناقشة بتعريف للمفهومين اللذين يضمهما عنوان المقال، وهما التحليل النفسي والمنهج العلمي.

التحليل النفسي:

«يدل اصطلاح التحليل النفسي وفقاً لتحديد فرويد على ثلاثة أشياء»:

أولاً: منهج للبحث في العمليات النفسية التي تكاد تستعصي على أي منهج آخر.

ثانياً: فن علاج الاضطرابات العصابية (النفسية)، يقوم على منهج البحث المذكور.

ثالثاً: مجموعة من المعارف النفسية يتألف منها نظام علمي جديد (٣ ـ ص ٥).

هذا، ويشير برنال Bernal في كتابه الموسوعي «تاريخ العلم» في جزئه الذي خصَّصه للعلوم الاجتماعية (٢١ ـ ص ١٠٩٤)، إلى أنَّ الإسهام الثاني العظيم لمدرسة فيينا كان الثورة الواضحة في علم النفس والتي جاء بها التحليل النفسي بتركيزه على العقل اللاشعوري غير المنطقي وإثباته خواء الشعور، حيث كانت نهاية القرن الماضي توحي بإفلاس مدارس علم النفس حينذاك والحاجة إلى علم نفس «علمي» جديد، وهو الذي قدَّمه سيجموند فرويد (١٨٥٦ـ ١٩٣٩) في السنوات التالية لعام ١٨٩٠.

إنَّ التحليل النفسي هو في نهاية الأمر ذلك العلم الخاص بتعمُّق البحث في الحياة النفسية في أعماقها السحيقة، سواء في تاريخها القريب أو

البعيد بغية فهم وتفسير الظواهر السلوكية التي تصدر عنها واكتشاف ما تخضع له من قوانين أمّا منهجه في البحث فهو أساساً عملية التداعي الحر بإزاء هفوات الفرد وأحلامه وأعراضه وسلوكه وتحويله الذي يقوم به إزاء المحلل وتفسير كل ذلك. ولقد مكّن هذا المنهج الفريد في دراسة الظاهرة النفسية من اكتشاف اللاشعور ولغته، والكبت وآثاره: والمقاومة ووظيفتها، والصراع الدائر داخل النفس بين دوافعها المتناقضة، وكيفية حلّه عن طريق ما يعرف بالحلول الودية Compromises التي ترضي كافة الأطراف الداخلة في الصراع كل بحسب قوّته.

المنهج العلمي:

عن المنطق الحديث يذكر الدكتور محمود قاسم: «هو منطق خاص لأنّه لا يدرس القواعد الشكلية العامة، كما كان يزعم أنصار المنطق القديم لكنه يدرس الطرق الخاصة التي تتبع بالفعل في كل علم من العلوم. ومن البديهي أنّ مناهج العلوم تختلف باختلاف الظواهر التي تعالجها» (١٤ ـ ص ٤٦).

ويشير الدكتور عابد الجابري إلى شيء قريب من هذا حيث يقول:

«والمنهاج العلمي هو جملة العمليات العقلية، والخطوات العملية، التي يقوم بها العالم، من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها. وبما أنّ العلوم تتمايز بموضوعاتها، فهي تختلف كذلك بمناهجها. ولذلك لا يمكن الحديث عن منهاج عام للعلوم، للكشف عن الحقيقة في كل ميدان، بل فقط عن مناهج علمية. إنّ لكل علم منهاجه الخاص. تفرضه طبيعة موضوعه». (١٢ ـ ص ١٩ ـ ٢٠).

ويمكن ـ بل وينبغي ـ أن نضيف إلى هذا أنّ العلم الواحد غالباً ما يكون له أكثر من منهج طالما اختلفت طبيعة ظواهره فيما بينها، بحيث يصبح منهج معين أصلح من غيره لدراسة ظاهرة معينة من ظواهر هذا العلم، كما

هو الشأن في علم النفس. فعلم النفس ـ على سبيل المثال ـ يستخدم المنهج التجريبي بصورة قريبة من استخدامه في العلوم الطبيعية منذ أن أنشأ فوندت Wundt أوّل معمل لعلم النفس بجامعة ليبزج عام ١٨٧٩، إلاّ أنّه لا يكاد ينجح في استخدام هذا المنهج إلاّ مع الظواهر النفسية البسيطة كزمن الرجع وظواهر الانتباه والإدراك الحسي، أمّا الظواهر النفسية الأكثر تعقيداً فيستعين علم النفس على دراستها بمناهج أخرى كالملاحظة والتأمل الذاتي ودراسة الحالة. ولا شكّ أنّه كلما كان في إمكان الباحث أن يكرر دراسته لنفس الظاهرة النفسية بأكثر من منهج كان ذلك أفضل له وأدعى للوثوق بنتائجه بشرط أن يكون كل من المناهج المستخدمة مناسباً للظاهرة التي يقوم بدراستها، فعندما تتأيد النتيجة بأكثر من منهج يرتفع مستوى تصديقها.

منهج التحليل النفسي:

يقول نيل في حديثه عن التحليل النفسي «لقد طور فرويد تدريجياً تكنيكاً لمساعدة المريض على استعادة الخبرات «المنسية» هو التداعي الحر. فهذا التكنيك بالإضافة إلى ملاحظات المحلل وتفسيراته لسلوك المريض يمثل منهج التحليل النفسي» (٢٣ ـ ص ٢٠٧).

ولنرجع إلى فرويد نفسه يصف لنا طريقته في التداعي الحر إذ يقول:

«... فبعد أن كنت أحفز المريض إلى أن يذكر شيئاً عن موضوع بعينه، أصبحت أطلب منه أن يستسلم لعملية تداع حر، أعني أن يذكر كل ما يخطر بذهنه، على أن يتجنب أي توجيه شعوري لخواطره. ولم يكن بدّ، مع ذلك، أن يلتزم المريض بذكر كل شيء يخطر بباله حرفياً معرضاً عن الاعتراضات النقدية التي من شأنها أن تستبعد بعض الخواطر بحجة عدم أهميتها أو عدم مناسبتها أو بحجة ألا معنى لها. ولا حاجة بنا أن نلح في مطالبة المريض صراحة بضرورة توخي الصدق في تسجيل خواطره، طالما قد أوضحنا له أنّ ذلك هو الشرط الأساسي في العلاج التحليلي بأسره. قد يبدو

عجيباً أنَّ طريقة التداعي الحر هذه التي هي تطبيق للقاعدة الأساسية في التحليل النفسي، قد حققت ما كان ينتظر منها، أي نقل الأمور المكبوتة التي كانت تحتجزها المقاومات إلى الشعور. . .» (٨ ـ ص ٤٧).

أولاً: انتقادات التحليل النفسي من حيث المنهج:

ذكرنا في مستهل هذا المقال إمكانية تركيز أهم الانتقادات الموجهة إلى التحليل النفسي في جانبين، أولهما المتعلق بمنهجه، وثانيهما المتعلق باستنتاجاته ومع إيماننا بأنَّ العلاقة بين المنهج ونتائجه علاقة جدلية، من غير المأمون فصل كل منهما عن الآخر إلاَّ من حيث التركيز فقط فإنَّنا لسهولة العرض فقط سوف نضطر القيام بمعالجة كل منهما على حدة مكتفين بهذه الملاحظة التي لا تغيب عن فطنة القارىء. وفيما يلي أهم الانتقادات يتلو كلاً منها مناقشة له.

تكاد تتركز أهم المآخذ الموجهة إلى التحليل النفسي من حيث منهجه في التالي:

١ ـ أنَّ فرويد أجرى ملاحظاته وتحليلاته في ظروف تفتقر إلى الضبط العلمي، وتنقصها إمكانية تأكيدها بالمنهج التجريبي الذي يتيح المعالجة الإحصائية للمادة التي تلاحظ، وهكذا يستحيل وزن الدلالة الإحصائية للاستنتاجات واختبار مدى ثباتها. ولا نستبعد أن نجد من بين من ذاعت شهرتهم من المفكرين وعلماء النفس ومن يسيرون في ركابهم من يتعصَّب لهذا الانتقاد مثل عالم النفس البريطاني المشهور إيزنك Eysenk الذي يقول: «إنَّه (أي فرويد) كان يفتقر كلية للقدرة على القيام بتصميم التجارب التي يمكن أن تضع هذه الفروض في اختبارات حاسمة ومن المؤكد أنَّه كان يتعالى علانية على البحث التجريبي» (٢ ـ ص ١٣٠ ـ ١٣١).

وقد يكون من الأفضل أن نقدم لمناقشة هذا الانتقاد بإلقاء بعض الضوء على التكوين العلمي لفرويد نفسه لنؤكد أنَّ الوعي بالمنهج التجريبي لم يكن

لينقصه، بل إنَّه قد مارسه في بحوثه لفترة طويلة، إلاَّ أنَّه اكتشف حدود صلاحية هذا المنهج، فلم ير فيه أنَّه صالح لدراسة كل ظاهرة مهما كانت نوعيتها.

لقد تخرَّج فرويد في الطب، ومارس البحث العلمي لفترة طويلة في مجال طب الجهاز العصبي ومجال الفسيولوجيا، وله مكتشفات هامة لا زالت حتى الآن دليلاً على أنَّه كان من كبار الباحثين في هذين المجالين، ولا يخفى على أحد أنَّ المنهج التجريبي الصارم هو عماد البحث فيهما. «فقد ظلَّ (فرويد) يبحث في تشريح النخاع الشوكي بمعهد الفسيولوجيا في فيينا زهاء ست سنوات أسفرت عن نتائج علمية من الدرجة الأولى، ثمَّ قضى بضع سنوات أخرى يبحث في تشريح المخ وأمراضه فاكتشف مرض (الشلل الشبيه بالرقاص)، وأفرد له مكاناً في المصنفات الإكلينيكية. وقام بدراسته من النواحي التشخيصية والتشريحية والعلاجية ـ فضلاً عن اكتشافاته في النخاع المستطيل، ثمَّ اكتشافه الإكلينيكي لما يعرف في الطب العصبي (بالأجنوزيا). وقد أصبحت هذه الاكتشافات جميعاً جزءاً من التراث الطبي خلَّدت اسم (فرويد) في ميدان الأمراض العصبية العضوية» (١٦ ـ ص ٧). ولهذا فقد كان فرويد «أحد أقطاب الطب الذين وجِّهت إليهم الدعوة ليكتبوا سيرهم العلمية، لكي تجمع في كتاب يمثِّل غاية ما أحرزه الطب من تقدم. وقد نشرت سيرة (فرويد) بقلمه في الجزء الرابع من هذا الكتاب وعنوانه (الطب في الوقت الحاضر ممثلاً في السير العلمية بأقلام أصحابها) ـ ليبزج ١٩٢٥». (١٦ ـ ص ٥) وفي كتاب فرويد «حياتي والتحليل النفسي» الكثير من التفاصيل التي تؤيد ذلك.

إلاَّ أننا ينبغي أن نؤكد أنَّ التثبيت على فكرة أنَّ المنهج التجريبي هو المنهج العلمي الوحيد إنَّما يعتبر ضرباً من التفكير الجامد الذي لا يوافق عليه علماء المناهج أنفسهم فضلاً عن علماء التخصصات العلمية المختلفة وغيرهم من الباحثين والمفكرين الذين يتصفون بالمرونة والواقعية. إذ يرى

كل هؤلاء ـ على نحو ما سبق أن ذكرنا في تعريفنا للمنهج العلمي ـ أنَّ المنهج العلمي يختلف باختلاف العلوم، وأنَّ لكل علم منهجه الخاص الذي تفرضه طبيعة موضوعه.

فعلماء الفلك ـ على سبيل المثال ـ لم يستطيعوا حتى الآن تطويع ظواهرهم للمنهج التجريبي، ومع ذلك فإنَّ ما توصلوا إلى اكتشافه من حقائق وقوانين خاصة بظواهرهم تصل إلى حد كبير من الدقَّة والصدق، وليس بيننا من يصف حقائقهم بالزيف لأنَّها لا تخضع للتجريب. بل إنَّ التجريب كثيراً ما يفشل في تجنيب الباحث تأثيراته الذاتية وتشويهها للاستنتاجات والمعلومات المتعلقة بالظاهرة التي يبحثها. ويكفينا مثلاً واحداً لذلك ـ شديد الوضوح والدلالة ـ هو الخاص بما زعمه البروفسور بلوندلوت M. Blondlot وقد كان فيزيائياً شهيراً في جامعة نانسي وعضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية. وفي عام ١٩٠٢ زعم أنَّه اكتشف أشعة «ن»، وقد كان زعمه هذا بعد كشف رونتجين Roentgen الألماني لأشعة × بستة أعوام.

وما أن أعلن بلوندلوت لاكتشافه أشعة «ن» حتى سارع كثير من الباحثين الفيزيائيين البارزين في فرنسا بإعلان أنَّهم استطاعوا في معاملهم تأكيد هذا الاكتشاف وقد كان من مظهر هذه الأشعة تزايد استضاءة الأسطح الفسفورية، وتزايد الوهج في السلوك البلاتينية. وسرعان ما بدأ الباحثون في محاولة الاستفادة التطبيقية لهذه الأشعة. وهكذا درس بروكا Broca أخصائي المخ علاقة أشعة «ن» بالمخ، كما تبين لشاربنتير Charpentier أنَّ الضغط الواقع على أحد أعضاء الجسم يصحبه إطلاق أشعة «ن»، وبحث لامبرت ومايز Lambert And Mayer أثر هذه الأشعة على النباتات. وتقديراً لهذا الكشف قامت الأكاديمية الفرنسية بمنحه جائزة لالاند وقيمتها عشرون ألف فرنك وميداليتها الذهبية. لكن من سوء حظ بلوندلوت أنَّ بعض الفيزيائيين خارج فرنسا حاولوا في معاملهم أن يحصلوا على أشعة «ن» فحصلوا على نتائج سلبية. وقد أثار ذلك نقاشاً وجدلاً حاداً بين العلماء مما دفع فيزيائياً

شهيراً من جامعة جونز هوبكنز هو وود R. H Wood للذهاب بشخصه إلى معامل بلوندلوت للتأكد من حقيقة الأمر، وهناك تأكد له بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ أشعة «ن» مزعومة، وليس لها أي وجود واقعي موضوعي، وأنَّ الأمر لم يكن أكثر من انحياز قومي شوَّه قدرة العلماء الفرنسيين على ضبط تجاربهم ومشاهداتهم فإذا بهم يدركون ما لا وجود له. وبعد أن نشر وود تقريره في مقال استمرت الأكاديمية في جائزتها إلاَّ أنَّها اضطرت لمواجهة الموقف إلى تغيير السبب المعلن عنه لاستحقاق الجائزة، فعزته إلى إسهامات أخرى سبق أن قام بها بلوندلوت. وقد كان لذلك بالغ التأثير على بلوندلوت فأصيب بالجنون ثمَّ مات بعد ذلك متأثراً بما لحقه من هذا العار (٢ ـ ص ١٢٧ ـ ١٢٩) وشبيه بهذه الأحداث في تاريخ العلوم لا شك كثير.

قد يتصور البعض أنَّ ذكرنا لهذه الحادثة بشيء من التفصيل إنَّما يشير إلى رفضنا للمنهج التجريبي، لكن ليست هذه هي الحقيقة. فلا شكَّ أنَّ أي منصف يرى أنَّ المنهج التجريبي من أدق المناهج حتى الآن في بحث الظاهرة بشرط قبول الظاهرة لهذا النوع من مناهج البحث. بل إنَّنا نؤمن بأنَّ العلوم الطبيعية والكيمائية والبيولوجية ـ وهي التي تقبل أغلب ظواهرها للبحث بالمنهج التجريبي ـ ما كانت لتحقق هذه الطفرة الهائلة في القرون الثلاثة المتأخرة لولا اصطناعها لهذا المنهج. لكن ما أردناه بسرد هذه الحادثة هو إقامة الدليل على أنَّ المنهج التجريبي لا يخلو هو الآخر من بعض الذاتية، وأنَّ الاستنتاجات التي تستنتج عن طريقه ليست بالضرورة حقائق ثابتة ثباتاً مطلقاً وبالتالي فإنَّ من ينادون باعتباره الفيصل في قبول المكتشفات أو رفضها هم بعيدون عن الموضوعية، متصفون بالجمود الذي يجعلهم يسقطون المشروعية العلمية عن كل منهج في البحث ما عداه. إنَّ هؤلاء ينسون أو يتناسون البديهة التي ترجع الحكم بصلاحية منهج من مناهج البحث إلى نوعية الظاهرة التي تبحث به.

يقول أستاذنا الدكتور مصطفى زيور: «. . . كل فتح علمي كبير يقتضي

ابتكار منهج جديد ملائم لموضوع البحث. فما كان يمكن الكشف عن عالم الجراثيم وخصائصه دون ابتكار الميكروسكوب ثمَّ ابتكارات باستور المشهورة في البكتريولوجيا. وما كان يمكن لعلوم اللغويات والأنثروبولوجيا وغيرها من علوم الإنسان أن تخطو خطواتها الحاسمة وإرساء قواعدها في نظم علمية مكينة دون اكتشافات التحليل النفسي أولاً ثمَّ اكتشاف المنهج البنياتي ثانياً. وما كان التحليل النفسي أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات حاسمة في ميدان الأمراض النفسية والعقلية دون ابتكار منهج التداعي الحر وهو منهج لغوي. وقد أقام الفيلسوف الفرنسي دالبيينز في رسالته المعروفة منهج التحليل الفرنسي ومذهب فرويد، الدليل الحاسم ـ من وجهة نظر فلسفة العلوم ومناهج البحث ـ على صدق منهج التداعي الحر واتصافه بكل مقتضيات البحث المنهجي العلمي.

«أمَّا إقحام منهج ثبت جدواه في ميدان بعينه على ميدان يختلف عنه اختلافاً جذرياً بدعوى أنَّه المنهج العلمي الوحيد، من حيث إنَّه يمكننا من القياس المضبوط والحصول على نتائج كمية، فهو مغالطة أخطر ما فيها أنَّها تجهل نفسها، تجهل أنَّها تصدر عن موقف ميتافيزيقي ترفضه الإبستمولوجيا المعاصرة بل يرفضه منطق تاريخ المعرفة العامية. فالقول بوجود نمط واحد من الموضوعية هو نمط الموضوعية في العلوم الفيزيائية، والإصرار على نقل هذا النمط إلى ميدان علوم الإنسان، إنَّما هو قول يفترض تطابق عالم الفيزياء وعالم الإنسان وهو افتراض ميتافيزيقي، إنَّه يحل وحدة النظام الفيزيائي محل كثرة التجربة وتنوعها، على حين أنَّه ينبغي القيام في كل ميدان باختيار الكيان النوعي. وفي اصطلاح «هو سر ل» إقامة أنطولوجيات الإقليمية.

«إنَّ الموضوعية المطلقة لا وجود لها في نطاق المعرفة العلمية، وإنَّما الأمر أمر موضعه Objectivation ـ لا موضوعية Objectivity ـ يسعى الباحث العلمي إلى تحقيق أكبر قدر متاح منها تدريجياً بصقل أساليب بحثه النوعية، بحيث تزداد الموضوعية بقدر نقصان العوامل الذاتية تدريجاً كلود لفي

شتروس، مقدمة كتاب علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لمارسيل موسى... (١٨ ص ع- ف)».

خلاصة القول إذن أنَّ التطرف في التعصب للمنهج التجريبي ليس مبنياً على أساس من الفهم السليم لطبيعة المنهج العلمي ووظيفته.

ومن ثمَّ فإنَّ من يسقطون الشرعية العلمية عن منهج التحليل النفسي لعدم اصطناعه التجريب واهمون بعيدون عن أي موضوعية علمية.

ومع كل هذا فلا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه عندما نتمكن من إخضاع بعض كشوف التحليل النفسي للمنهج التجريبي يثبت صدقها. فسهولة استعادة الاستجابة المنطفئة على نحو ما تبدو من تجارب علماء النفس السلوكيين ليست إلَّا تعبيراً واضحاً عن ظاهرة التثبيت التي اكتشفها التحليل النفسي، وفي إحدى التجارب نوَّم برنهايم رجلاً نوماً مغناطيسياً ثمَّ أمره أن يفتح مظلة في قاعة العرض بعد أن يصحو بخمس دقائق. ففعل الشخص ما أمر به دون أن يعرف شيئاً مما حمله على فعله هذا». (٥ - ص ٣٠٨). مما يؤكد لنا موضوعية وجود عمليات نفسية لا شعورية على نحو ما أكَّدته كشوف التحليل النفسي. ولقد قضى كاتب هذا المقال زهاء تسع سنوات في بحثين عن سيكلوجيا الحوادث وسيكلوجيا العامل المشكل في الصناعة مستخدماً أساليب المنهج التجريبي الإحصائي وضوابطه، فإذا به يلتقي في نتائج هذين البحثين النهائية مع ما انتهى إليه التحليل النفسي بمنهجه الخاص من كشوف وتفسيرات لديناميات الحياة النفسية (١٠ و ١١).

٢ - هذا، ويوجه إلى منهج التحليل النفسي مأخذ ثانٍ هو أنَّه لا يمكن لمشاهد آخر بخلاف المحلل أن يلاحظ كيف تجري عملية التحليل داخل جلسات العلاج، ويستتبع ذلك صعوبة الاطمئنان والتأكد من موضوعية استنتاجات المحلل واكتشافاته.

والواقع أنَّ هذا الانتقاد لمنهج التحليل النفسي لا يرجع لضعف لصيق

بالتحليل النفسي كمنهج للبحث أو العلاج، بل إنَّ طبيعة الجلسة التحليلية هي التي تحتم ذلك. فهذه الجلسة تفقد طابعها الخاص بل وتكاد تمتنع لمجرد وجود مشاهد مع المحلل. فالمريض في مثل هذه الحالة سوف يتردد في البوح بمكنونات نفسه نظراً لعوامل الخجل والخوف والشك التي ينجح المحلل في استبعادها أثناء حضوره، ولكن يصعب عليه ذلك في حالة حضور شخص آخر في جلسة التحليل: والحقيقة أنَّ المحللين يأسفون أشد الأسف لهذا القيد الذي تحتِّمه طبيعة جلسة التحليل النفسي ولا يجدون مفراً منه، فهو يحرمهم من إثبات بعض حقائق التحليل النفسي ومكتشفاته الهامة أمام الغير، لكن ما يجب أن نؤكده هو أنَّ هذا الموقف لا ينفي موضوعية ما يصل إليه التحليل النفسي من كشوف نتيجة لما يدور في هذه الجلسات. إنَّ الذين ينكرون الموضوعية هنا إنَّما يفهمون الموضوعية بمعنى ضيِّق لا يتفق والموضوعية نفسها. فليست الموضوعية في العلم قاصرة فقط على معنى ما يمكن إثباته أمام الغير، بل هي تشمل أيضاً تلك الحقائق الصادقة التي لا يمكن إثباتها إلاَّ من جانب شخص واحد هو المعنى فقط. ونحن ما لم نسلم بذلك فسوف نعجز عن الدراسة العلمية لكثير من الظواهر وننصرف عنها. فإذا أردت أن تعرف حقيقة ما يفكر فيه الشخص «أ» فلا سبيل أمامك إلاَّ أن تسأله عن ذلك فيجيبك. ومهما أوتيت من أساليب فلن تستطيع معرفة ذلك إلاَّ بهذه الوسيلة، فلم يوجد حتى الآن ذلك المنظار الذي تستطيع أن تنظر به إلى رأس الشخص فترى به ما يجول فيه من تفكير ويمكنك به أن تدع غيرك ليتأكد هو الآخر. معنى ذلك أنَّك لن تستطيع التأكد من أنَّه صادق أو غير صادق. ولذا فلا سبيل أمامك إلاَّ اصطناع بعض الأساليب غير المباشرة لتجعلك أكثر اطمئناناً إلى موضوعية الشخص فيما أخبرك به، مثل معرفتك السابقة عن مدى اتِّصافه بالصدق أو الكذب، ومعرفتك بما لديه من دوافع وحوافز للصدق أو الكذب في إجابته لهذا السؤال بالذات... إلخ. ومن الجدير بالذكر أنَّ قسماً كبيراً من الاختبارات النفسية توضع على هذا الأساس المنهجي (كاستبيانات وقوائم الشخصية)، بالإضافة إلى أنَّ كثيراً من البحوث

الميدانية في علم النفس وعلم الاجتماع تعتمد على هذا الأسلوب أيضاً دون أن تلقي كل هذه المقاومة وذلك الاعتراض.

ولكن مما يجدر ذكره ـ بهذا الصدد ـ أنَّ التحليل النفسي وصل إلى أهم كشوفه أو دلل عليها خارج جلسات التحليل النفسي من المرضى والأسوياء على حد سواء، ثمَّ طبقها ولاحظها سافرة ومضخمة داخل هذه الجلسات ففرويد لم يكف عن مطالبة الناس بالخلو إلى أنفسهم بمثل ما كان يفعل هو محاولين مكاشفة أنفسهم وتحليل هفواتهم وأحلامهم وسلوكهم ليتأكدوا من صدق ما وصل إليه. كما أقام الدلائل الكثيرة من حالات سوية ومرضية في العالم البدائي وفي العالم المتحضر على صدق ما جاء به من كشوف واستنتاجات. ونجد ذلك شائعاً في معظم كتاباته وخاصة في كتبه الثلاثة «تفسير الأحلام» و«علم النفس المرض للحياة اليومية» و«محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي».

٣ ـ هناك انتقاد ثالث يوجه إلى منهج التحليل بدعوى أنَّه أتى بكشوفه واستنتاجاته من دراساته للمرضى النفسيين وقام بتعميمها على الأسوياء مما أوقعه في خطأ منهجي كبير.

إنَّ الذين يزعمون هذا الزعم ليسوا على وعي كافٍ بتطور نشأة التحليل النفسي وتاريخ مكتشفاته. وأغلب الظن أنَّهم لم يقرأوا الكتابات الأساسية التي قدَّمها فرويد وتلاميذه. ولعلَّ الفقرة الأخيرة الواردة في مناقشتنا للانتقاد الثاني تدلل على ذلك. وبالإضافة إلى هذا فإنَّ القوانين التي تحكم الحياة النفسية في سوائها هي نفسها التي تحكمها في مرضها تماماً كما نجد أن ديناميات القلب وقوانين تشغيله هي نفسها في صحته ومرضه. وعلاوة على كل ذلك فإنَّ الخط الفاصل بين سواء النفس ومرضها ليس بالوضوح الذي يتصوره البعض، وإنَّما سواء النفس ومرضها أمر نسبي في حقيقته، فإلى أي حد هذا الشخص مريض نفسياً وإلى أي حد هو سوي.

٤ ـ كثيراً ما يوجه انتقاد رابع إلى منهج التحليل النفسي بدعوى أنَّ المحلل النفسي يوحي إلى مريضه بالأفكار التي يبحث عنها المحلل، فيلجأ المريض إرضاءً لمحلله إلى الانسياق وراء إيحاءات المحلل والاستجابة لها.

لا شكَّ أنَّ هذا الانتقاد افتراء واضح على التحليل النفسي. ويعلم دارسو التحليل النفسي أنَّ القاعدة الأساسية لعملية التحليل هي عدم الإيحاء للمريض بأي شيء سوى أن يذكر المريض كل ما يرد على باله أثناء الجلسة دون انتقاء أو استبعاد أو خوف أو خجل. ويزداد المحلل حيطة فلا يشير إلى مريضه بتفسير ما وصل إليه لعرض أو حلم أو أي سلوك حتى تكشف متداعيات المريض نفسه للمريض نفسه حقيقة الأمر، فإذا بالمريض نفسه يقوم بالاعتراف بها والوصول إلى تفسيرها. وقد يقتضي الأمر من المحلل الذي غالباً ما يصل إلى التفسير والفهم قبل المريض، أن ينتظر لعدَّة جلسات حتى يصل المريض نفسه إلى التفسير والفهم. بل إنَّ سرعة المحلل في تقديم التفسير قبل أن يصل إليه المريض بنفسه أو قبل الوقت المناسب والذي يكون فيه المريض على وشك الوصول إلى التفسير، نقول إنَّ سرعة المحلل في تقديم التفسير في هذه الحالة مضر بسير عملية التحليل بل إنَّه يهدد بإفسادها وقطعها تماماً.

ويمكننا أن نزيد على ذلك ما هو معروف من أنَّ المحللين النفسيين إذا تبين لهم أنَّ مرضاهم يقرأون في التحليل النفسي فإنَّهم ينصحونهم بتأجيل ذلك حتى ينتهون من عملية تحليلهم تماماً. والسبب الأساسي لموقف المحللين هذا خشيتهم أن يقوم ما هو مكتوب في التحليل النفسي بالإيحاء ولو غير المباشر إلى المرضى بما ينبغي عليهم أن يذكروه أثناء جلسات التحليل فيبدأوا في انتقاء ما يدلون به من متداعيات فتنكسر القاعدة الأساسية في التحليل النفسي والتي تقتضي إطلاق العنان للتداعي.

٥ ـ هناك انتقاد خامس يدَّعي أنَّ العلاج بطريقة التحليل النفسي لا

يؤدي إلاَّ إلى شفاء نسبة ضئيلة في المقارنة بنسبة الشفاء في الحالات التي تعالج جسمياً.

ولا شكَّ أنَّ المقارنة الواردة في هذا الانتقاد مقارنة ظالمة أولاً لاختلاف نوعية المرض الذي يعالج بالتحليل النفسي عن نوعية هذا الذي يعالج بالعلاج الجسمي، وثانياً لأننا نجد كثيراً من الأمراض يفشل فيها العلاج الجسمي فشلاً كبيراً في المقارنة بالفشل في حالات العلاج التحليلي كما هو الحادث في بعض أمراض السرطان وضغط الدم والدرن الرئوي والأمراض المزمنة عموماً، ومع ذلك فإنَّ أساليب علاج هذه الأمراض لا تعارض بل إنَّها تلقى القبول، لأنَّ نسبة نجاح العلاج مهما كانت ضئيلة فهي مكسب تحصله البشرية ينبغي لها التمسك به لا التخلي عنه طلباً لنجاح أكبر قد لا تصل إليه البشرية قبل أحقاب طويلة، وثالثاً لأنَّ المريض لا يلجأ إلى العلاج بالتحليل النفسي إلاَّ بعد أن يفشل في العلاج بمختلف الأساليب الجسمية والنفسية الأخرى، أي عندما يكون مرضه أكثر مقاومة للشفاء وأكثر إزماناً. ويضاف إلى كل هذا أنَّه ليست بين أيدينا في الوقت الحالي بيانات إحصائية يمكن الوقوف فيها على مقارنة نسبة نجاح العلاج بالتحليل النفسي بالنسبة المقابلة للنجاح في العلاج الجسمي للأمراض المختلفة.

ولعلَّ من الجدير بالذكر ما نلاحظه هذه الأيام من تزايد نسبة حالات الأمراض الجسمية التي أصبحت تستعصي على أساليب العلاج الجسمي، مما أجبر الطب أخيراً (منذ ثلاثينات هذا القرن فقط)، أن يتلمس لبعضها أساساً نفسياً فعثر عليه لدى المحللين النفسيين، وأفرد له تصنيفاً خاصاً بين الأمراض هو المعروف بالأمراض السيكوسوماتية (أي الأمراض الجسمية ذات السبب النفسي). مثل كثير من أمراض الجهاز الهضمي وأمراض الحساسية والسكر وضغط الدم وما إليها. «إنَّ التأمل... يعود بالذاكرة إلى قول أفلاطون: (وما ينبغي لك أن تحاول شفاء الجسم دون شفاء للروح، وأنَّ ذلك لهو السبب في أنَّ شفاء الكثير من الأمراض يمتنع على أطباء اليونان،

لأنهم يغفلون الكائن بوصفه كلاً، ذلك أنَّ الجزء لا يمكن أن يكون سليماً. إلاَّ إذا كان الكل سليماً. وأنَّ أكثر الخطأ في أيامنا هذه في علاج الجسم أنَّ الأطباء يفصلون بين الجسم والنفس)... لقد اقتضى الأمر أكثر من ألفي سنة حتى يقوم الدليل العلمي على صحة هذه الحقائق الإنسانية» (١٥ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩).

ثانياً: انتقادات التحليل النفسي من حيث قضاياه ومكتشفاته:

فإذا ما انتقلنا إلى الانتقادات التي توجه إلى قضايا للتحليل النفسي ومكتشفاته وجدنا أنَّ أغلبها قائم على التسليم بعدم علمية منهج التحليل النفسي، هذا التسليم لا بدَّ وأن يتبعه رفض للاستنتاجات والقضايا والحقائق التي تمَّ له اكتشافها أو إقامة الدليل عليها. وفي نفس الوقت لنا أن نتوقع أن يحدث العكس، بمعنى أنَّ قناعة الفرد ببطلان استنتاج من استنتاجات التحليل النفسي قد يؤدي به إلى التشكك في منهج التحليل النفسي ذاته بحجة أنَّ هذا المنهج أدَّى إلى استنتاجات باطلة.

هذا، ويمكن أن نستعرض فيما يلي أهم ما يوجه إلى التحليل النفسي من انتقادات تتعلَّق بقضاياه ومكتشفاته مع مناقشة تتلو كلاً منها:

١ ـ اكتشاف التحليل النفسي للاشعور وإعطاؤه أهمية كبيرة في الحياة النفسية للإنسان. وهذا شيء ضدُّ المنطق.

وإذا أردنا الدقة فإنَّ التحليل النفسي لم يكن هو الذي اكتشف اللاشعور، بل هو الذي أقرَّه وأقام الدليل الحاسم على وجوده ونبَّه إلى أهميته ودوره الأساسي في الحياة النفسية، ودافع عن كل ذلك في جرأة شديدة. ذلك أنَّ كثيراً من قضايا التحليل النفسي قد سبق إلى اكتشافها هؤلاء الذين أوتوا موهبة النفاذ إلى أعماق الحياة النفسية عن طريق الحدس السليم والحس المباشر الصحيح، وإن كانوا لم يستطيعوا أو لم يهتموا بإقامة الدليل المقنع على صدق حسهم وحدسهم، مثل الشعراء والفلاسفة وأصحاب

الحكمة الشعبية وذوي الفكر الصافي من العلماء.

لقد سبق أن نبَّه الفيلسوف الألماني شوبنهور من قبل فرويد بأكثر من نصف قرن إلى أهمية اللاشعور وسطحية الشعور. ومن آرائه: «أنَّ الشعور هو مجرد السطح بالنسبة لعقولنا، التي لا نعرف ما بداخلها. كالكرة الأرضية لا نعرف منها إلاَّ ما هو على سطحها» (٢٢ ـ ص ٣١٢).

ومما يدلل على وجود اللاشعور أبلغ تدليل ما يلاحظ من التزام بعض المرضى النفسيين القيام بأعمال حوازية متكررة ليس لها من معنى منطقي مقبول حتى من جانبهم أنفسهم. مع أنَّهم يضيقون بهذه الأفعال إلاَّ أنَّ ضيقهم يبلغ مداه إن حيل بينهم وبين إنجازها، مما يشير إلى وجود عمليات نفسية لا يفهمونها تقهرهم على إتيان هذه الأفعال. وبلغة التحليل النفسي توجد عمليات نفسية لا شعورية، ودوافع نفسية لا شعورية تجبرهم على ذلك. ولا سبيل إلى فهم هذا كله إلاَّ بالكشف عن مكنونات لا شعورهم وما تجري به من عمليات نفسية بعيدة عن إدراكهم ووعيهم.

ويعلِّق الدكتور سامي محمود علي، على قضية اللاشعور بقوله: «ولا يتخيلن امرؤ أنَّ التحليل النفسي موضوعه دراسة اللاشعور وأنَّ الشعور موضوع علم نفس آخر. فالواقع أنَّ التحليل النفسي، وإن قام على معارضة التيارات السيكلوجية السائدة في القرن التاسع عشر إلاَّ أنَّه يدخل الشعور في دراسته بل ويدرسه في علاقته باللاشعور. ويمكن القول عامة إنَّ موضوع التحليل النفسي ليس هو الشعور واللاشعور. بل هو الإنسان في شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ». (٤ ـ ص ٩٨).

٢ ـ هناك مأخذ ثانٍ على التحليل النفسي هو المتعلق بإقراره بوجود دوافع جنسية في الطفولة، بعكس ما هو معروف عن الطفولة البريئة.

وليس التحليل النفسي أوَّل من كشف عن هذه الحقيقة، فقد كان دوره بالنسبة لها كدوره بالنسبة للاشعور كما سبق أن ذكرنا. ومن الإنصاف لفرويد

أن نعلم أنّه كان من التواضع والموضوعية بحيث لم يدّعِ لنفسه كشفاً علم أن غيره سبقه إليه، بل كان يبين بكل تواضع أنّ دوره في مثل هذه الحالات لم يكن أكثر من دور من يقرر شيئاً سبق اكتشافه ويقيم الدليل عليه ويعمّقه ببحوثه ودراساته. وفي هذا الصدد يقول فرويد: «وسأحدثكم الآن عن أوضح ما يبدو من أوجه النشاط الجنسي عند الطفل.. إنّ أوجه النشاط الجنسي عند الرضيع تفتح للتأويلات ميداناً لا حد له كما سترون في غير عناء. ولا شكّ في أنها ستكون مثاراً لاعتراضات منكم... إنّ المظاهر الأولى التي تبدو بها الجنسية عند الرضيع، تتصل بوظائف أخرى حيوية هامة. فالرضيع كما تعرفون ينصب اهتمامه الرئيسي على الرضاعة حتى إذا نال حظاً موفوراً منها فأخذه النوم على صدر أمه، بدت عليه من أمارات الرضا والارتياح ما سوف تبدو لديه فيما بعد من حياته حين يقضي لبانته من الإشباع الجنسي على أنّ هذه الظاهرة لا تكفي أن تكون أساساً تبنى عليه نتيجة. لكن المشاهد المعروف أنّ الرضيع ينزع دائماً إلى أن يكرر الحركات التي تقترن عادة بعملية الرضع، لا لأنّه في حاجة إلى التغذية بالفعل، بل لمجرد القيام بهذه الحركات، فنقول عنه في هذه الحالة إنّه «يتمصمص». وإنّه ليمضي في فعله هذا حتى يحتويه النوم مرّة أخرى هانئاً مغتبطاً، مما يحملنا على أن نرى أنّه يجد في هذا التمصمص، في ذاته لذّة وسروراً وسرعان ما ينتهي به الأمر ألا يستطيع النوم دون أن يتمصمص. لقد كان الدكتور لندنر Lindner طبيب الأطفال ببودابست أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذه العملية» (٥ ـ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

٣ ـ كثيراً ما يؤخذ على التحليل النفسي أنّه يعزو كل سلوك الإنسان إلى الدافع الجنسي وحده، حتى أحلام الإنسان ومرضه النفسي.

وهذا الانتقاد يتضح فيه الافتراء على التحليل النفسي أو الجهل بما قال به. ففرويد كما نعلم أبرز دور الجنس، لكنه لم يقل بأنّه الدافع الوحيد عند الإنسان بل أضاف إليه دافعاً في مثل قوّته هو دافع العدوان. وفي كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» أوضح فرويد نظريته في الغرائز وأقرّ بوجود غريزتين

أساسيتين هما غريزة الجنس وغريزة العدوان. ومن الضروري أن نعلم أنَّ فرويد لم يقصد بغريزة الجنس أو الحب ذلك الجنس أو الحب بمعناه الضيِّق الشائع بين غير ذوي الاختصاص بل قصده بمفهومه الواسع الذي يشمل كافة نزعات الحب والبناء والرغبة في المحافظة على الذات وعلى الآخرين وإسداء المعونة والمساعدة لهم: في حين أنَّ غريزة العدوان تشمل كافة النزعات التي تهدف إلى الإضرار بالذات وبالآخرين والاعتداء عليهم والكراهية لهم. هذا علاوة على أنَّ التحليل النفسي قد أكَّد على أنَّ السلوك الواحد نادراً ما يكون صادراً عن غريزة الحب وحدها أو العدوان وحدها، بل غالباً ما يكون صادراً عن مزيج من الدافعين معاً وإن تفاوت وزن كل منهما في كل حالة عن الأخرى.

وهكذا، فإنَّ التحليل النفسي لم يقل بوجود دافع واحد أو غريزة واحدة بل قال بعدد غير محدود من النزعات الغريزية التي يمكن في نهاية الأمر تجميعها في غريزة الجنس (أو الحب أو الحياة) وغريزة العدوان (أو التدمير أو الموت). والنظرة الفاحصة المتأنية ستثبت لنا إمكانية إدخال أي نزعة إنسانية تحت واحدة من هاتين الغريزتين. كما أنَّ نظرة شاملة لما يحدث في عالمنا اليوم وحدث فيه بالأمس من انتشار للتوتر والحروب بين الجيران وغير الجيران من الدول، وتعرض العالم لحربين طاحنتين خلال ربع قرن من الزمان، وفشل محادثات نزع السلاح، واستنزاف الدول الغنية المستمر لاقتصاديات الدول الفقيرة، كل ذلك ولا شكَّ يؤكد أنَّ التحليل النفسي على حق في نظرياته الخاصة بما تنطوي عليه النفس البشرية من نزعات ودوافع عدوانية إلى جانب نزعات الحب والبناء فيها. والتحليل النفسي عندما يكشف الغطاء عن حقيقة ما يعتمل داخل النفس البشرية من نزعات، لا يدعو بذلك ـ كما قد يفهم البعض ـ إلى الاستهتار بالقيم الخلقية، بل هو يمد هذه القيم بأساسها العلمي وينير لها الطريق نحو فهم أفضل، وبالتالي نحو سياسة أفضل لهذه النزعات وتلك الدوافع.

أما ما ورد في هذا الانتقاد عن الأحلام ـ فيقول عنه فرويد: «إلاَّ أنني مع ذلك لم أقرر قط ما نسب إليَّ من أنَّ تفسير الأحلام يبيِّن أنَّ لجميعها مضموناً جنسياً أو أنَّها جميعاً صادرة عن قوى دافعة جنسية. فمن اليسير أن نتبين أنَّ الجوع، أو العطش، أو الحاجة إلى الإفراز، قد تنتج أحلام إشباع شأن أي دافع.. جنسي أو أناني». (٨ ـ ص ٥٣).

٤ ـ يعيب البعض على التحليل النفسي أنَّه يهمل دور العوامل البيئية، في حين يعيب عليه آخرون أنَّه يهمل دور العوامل الوراثية.

ومن الطريف أنَّ هذين النقدين اللذين جمعنا بينهما الآن على تناقضهما، يثبتان مغالاة نقَّاد فرويد والتحليل النفسي فيما يذهبون إليه من نقد، حتى أنَّه عندما يثبت دور العامل البيئي في موقف سارعوا إلى اتِّهامه بإهمال العامل الوراثي، وعندما يثبت دور العامل الوراثي في موقف آخر سارعوا إلى اتِّهامه بإهمال العامل البيئي. والواقع أنَّ فرويد والتحليل النفسي، بل وأي نظرية أخرى إذا ما أثبتت شيئاً فليس معنى ذلك أنَّها لا بدَّ وأن تنفي الشيء الآخر ما لم تقل النظرية صراحة بذلك، وإلاَّ كنَّا نتقول عليها. وفي محاضرته الثالثة والعشرين بعنوان «كيف تتكون الأعراض» يوضح فرويد بما لا يدع مجالاً للشك إيمانه بتأثير كل من العامل الوراثي والعامل البيئي في الشخصية. ويشرح ذلك فيما يعرف بسلاسل التتام (بمعنى حدوث تتام بين العامل الوراثي والعامل البيئي في إحداث المرض النفسي، فإذا كان أحدهما ذا تأثير كبير فإنَّ الآخر يؤثر حتى لو كان تأثيره ضعيفاً نسبياً). وفي هذه المحاضرة يقول فرويد: «وعلى هذا فتثبيت الليبدو لدى الراشد الكبير ـ وقد أشرنا إلى أنَّه يمثِّل العامل الجبلي في نشأة الأمراض النفسية ـ يمكن أن نردُّه الآن إلى عاملين آخرين. الاستعداد الموروث من جهة، والاستعداد المكتسب في الطفولة المبكرة من جهة أخرى..» (٥ ـ ص ٤٠٠). وفيما سبق أن ذكرناه من تعليق للدكتور سامي محمود علي عن اللاشعور توضيح جيد لرأي التحليل النفسي في أهمية كل من دور الوراثة ودور البيئة معاً حيث

يقول: «ويمكن القول عامة بأنَّ موضوع التحليل النفسي ليس هو الشعور واللاشعور بل هو الإنسان في شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ» ومن الواضح أنَّ التحليل النفسي في هذا يتَّفق وأدق النظريات العلمية السائدة الآن عن تعليل الفروق بين الأفراد بإرجاعها إلى تفاعل تأثير كل من الوراثة والبيئة معاً على الفرد الواحد.

٥ ـ يعترض البعض على كشوف التحليل النفسي التي يرى فيها الشخصية متضمنة لدوافع متناقضة وجوانب متصارعة هي دوافع وجانب الهو ـ والأنا ـ والأنا الأعلى، بينما فكرة التناقض داخل الكيان الواحد لا تتفق مع المنطق.

إنَّ فكرة الصراع والتناقض داخل الكيان الواحد أصبحت واسعة القبول والانتشار بعد أن استطاع الفكر الهيجلي وأصحاب المادية الجدلية التدليل على صدقها هذا علاوة على أنَّ كل من أتيحت له فرصة لتحليل بعض جوانب نفسه ونفوس الآخرين يتبين بوضوح انطواء النفس على هذا التناقض حتى على المستوى الشعوري نفسه، تماماً كما تنطوي دينامية الإنسان البيولوجية على العمليتين المتناقضتين الشهيرتين، أعني بهما عملية الهدم وعملية البناء. إذن ففكرة التناقض داخل النفس الواحدة واحتوائها على دوافع وجوانب متصارعة فكرة مقبولة في حد ذاتها، مؤيدة من الخبرة المباشرة بما لا يدع مجالاً للشك. أمَّا فكرة عدد هذه الدوافع المتناقضة ومسمياتها وعدد جوانب النفس المتصارعة ومسمياتها، وما إلى ذلك من أمور تفصيلية تتعلَّق بالصراع والتناقض فيمكن أن يختلف عليها من شاء، فهي فروض أقرب للفروض الفلسفية التي تعين على الفهم دون أن تقيده. وبهذا الصدد يقول فرويد: «وفي المؤلفات التي تمَّت في الأعوام التالية (ما فوق مبدأ اللذة، نفسية الجماعة وتحليل الأنا، الأنا والهو)، أطلقت العنان للميل إلى التفلسف الذي كبحته زمناً طويلاً، وأعملت فكري في حل لمشكلة الغرائز..» (٨ ـ ص ٦٨) كما قال: «ويكفي أن نذكر أنَّه بدا لي أمراً مشروعاً أن ألحق

بالنظريات التي كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة، فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع. فروضاً متعلقة بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة والمباشرة. وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج. إنَّ تقسيم اللاشعور بدوره يرتبط بمحاولة تصوير الجهاز النفسي بوصفه يأتلف من عدد من النظم الوظيفية تعبِّر عن علاقاتها المتبادلة بعبارات مكانية، دون أن يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّه تقسيم يستند إلى التشريح الفعلي للمخ. (أطلقت على هذه الطريقة ـ في تناول الموضوع ـ الطريقة الطبوغرافية). هذه الأفكار بمثابة بناء نظري إضافي للتحليل النفسي، يمكن لأي جانب منه أن يترك أو يعدل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته». (٨ ـ ص ٣٨ ـ ٣٩).

٦ ـ هناك انتقاد آخر يشيع بين كثير من المفكرين والمثقفين بدعوى أنَّ التحليل النفسي علم مثالي يهمل شأن المادية الجدلية في الحياة النفسية.

إن الافتراء على التحليل النفسي ووصمه بالمثالية لإهماله تأثير العامل الاقتصادي على البناء النفسي للإنسان مردُّه إلى عدم استقامة فهم كل من المادية والمثالية. فليس صحيحاً أنَّ النظرية المادية تهمل كل عامل إلاَّ العامل الاقتصادي، وإن كانت تعطيه بلا شك أهمية أكبر من غيره، لكن ليس بمعنى إهمال كل شيء ما عداه وإنكاره. ففي مقال الدكتور عابد الجابري (أحد أتباع المادية الجدلية بالمغرب) عن «التاريخ والفلسفة» يقول: «فالشيء المادي لم يعد جسماً صغيراً كحبة الرمل، بل أصبح نشاطاً وطاقة... إنَّ التصنيف المشهور الذي ألحَّ عليه أنجلز والذي يقسم الآراء والنظريات إلى مثالية ومادية صحيح إذا أخذناه كأداة منهجية. ولكن إعطاء مضمون ما للمثالية أو للمادية يجب أن نعتمد فيه على المرحلة التاريخية والأهداف الأيديولوجية، فما نسميه بالنزعة المثالية قد تكون تقدمية تخدم أهداف المستقبل والطبقات المحرومة وقد تكون رجعية تخدم الأيديولوجيا الاستغلالية وذلك حسب اختلاف الظروف والملابسات التاريخية والاجتماعية وكذلك

الشأن بالنسبة للنزعة المادية، (ص ١٣ ـ ٢١، ٢٣، ٢٤) ويقول بعد ذلك في نفس المقال. «وفي هذا المجال يجب أن نعطي للدين كعقيدة تغلغلت في صفوف الجماهير حتى أصبحت قوَّة مادية مكتسحة الدور الذي يستحقه في أحداث التاريخ الإسلامي ومسلسل تطوره. ويجب ألاَّ نغفل دور الدين بدعوى تجنب السقوط في المثالية فهذا كلام فارغ وشعار أجوف» (١٣ ـ ص ٢٦).

ولكي تستكمل مناقشة هذا النقد للتحليل النفسي يحسن أن نلجأ إلى ما قاله فرويد نفسه عن المادية الجدلية (الماركسية) في محاضرته الخامسة والثلاثين التي عنوانها «النظرة إلى الكون». بعد أن يعترف فرويد صراحة بأسفه لقصور معرفته بالماركسية يقول: «إنَّ بحوث (كارل ماركس) في البناء الاقتصادي للمجتمع، وفي تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادي في كل أقطار الحياة الإنسانية قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يمكن أن يجحد... من الجلي أنَّ قوَّة المذهب الماركسي لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلية التي يبنيها على هذه النظرة، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم في الإنتاج الفكري والفني والخلقي للإنسان. وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأثرها من الصلات والتتابعات العلية التي كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد. غير أنَّه لا يمكن التسلم بأنَّ الدوافع الاقتصادية هي الدوافع الوحيدة التي تحتم سلوك الناس في المجتمع. فمما لا مراء فيه أنَّ مختلف الأفراد والشعوب والسلالات لا يكون سلوكها واحداً في نفس الظروف الاقتصادية. وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أنَّ العامل ـ الاقتصادي لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد، بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية حين يتعلَّق الأمر باستجابات كائنات بشرية حيَّة، لأنَّ العوامل لا تساهم في إقامة الظروف الاقتصادية فحسب، بل تحدِّد كذلك أفعال الناس، فالإنسان لا يستطيع أن يعمل، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف، إلاَّ بدافع من نزعاته الغريزية: كغريزة المحافظة على النفس، وحب العدوان، والحاجة إلى الحب، هذا إلى ما

لديه من دافع إلى التماس للذة وتفادي الألم..» (٦ ـ ص ١٦٧، ١٦٩).

ومن أقوال فرويد هذه وتعليقاته على الماركسية يتبين بوضوح تقدير فرويد واعترافه بأهمية العامل الاقتصادي في توجيه السلوك وتشكيل سمات الشخصية، لكنه ينكر أن يكون هو العامل الوحيد. «ومن الإنصاف لماركس أن نقرر أنَّ ما يأخذه فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس: (إنني لست ماركسياً) وهو يعني بذلك من غير شك أنَّ باب الاجتهاد لم يقفل ولا ينبغي له أن يقفل. ومن الإنصاف للماركسيين أن نذكر أنَّ بعض فلاسفتهم المعاصرين فطنوا لذلك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز وبخاصة في كتابه (إيروس والحضارة)» (١٧ ـ ص ١٠) وفيما نقلناه سابقاً عن الدكتور عابد الجابري ما يدعم نفس الرأي.

وإذا كانت الأقدار قد شاءت أن تكون النظرية الماركسية سابقة على فرويد مما أتاح له فرصة إبداء رأيه فيها ـ على نحو ما سبق ـ فماذا يا ترى كان رأي ماركس في نظرية التحليل النفسي فيما لو شاءت الأقدار عكس ذلك فكان فرويد بنظريته في التحليل النفسي أسبق تاريخياً أو معاصراً لماركس!

ومع كل هذا فإنَّه« من الطريف أن نذكر أنَّ فرويد كان مادياً جدلياً بمعنى خاص عندما سجّل في حقل كشوفه الصراع بين الرغبة والدفاع، (وهما طاقات بيولوجية أي مادية) والتسوية الموفقة بينهما (جماع الأطروحة) فتكون الصحة أو التسوية غير الموفقة فيكون المرض». (١٧ ـ ص ٩ ـ ١٠) ولمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر نحيل القارىء إلى أوسبورن في كتابه «الماركسية والتحليل النفسي» وإلى الدكتور أحمد فائق في كتابه «التحليل النفسي بين العلم والفلسفة»[1].

٧ ـ هناك انتقاد آخر يوجه إلى شخصية فرويد بشكل مباشر، وإن قصدت به أيضاً مكتشفاته وآراؤه بشكل غير مباشر، هذا الانتقاد هو ادِّعاء

البعض أنَّ فرويد كان مولعاً بابتداع الأفكار الغريبة وترويجها حباً للظهور، كما كان مستبداً برأيه جامداً عليه يضيق بمن يعارضه أشد الضيق حتى أنَّه لم يبق له في النهاية من تلاميذه وزملائه إلاَّ من ارتضوا السير وفق هواه وتبني أفكاره.

ومن الإنصاف لفرويد أن نقرر أنَّ تاريخه مع اكتشاف التحليل النفسي وما عرض له من قضايا وما كتبه في مؤلفاته يقوم دليلاً واضحاً على بطلان هذا النقد. فلقد كان فرويد من التواضع العلمي الذي جعله يرجع الكثير من مكتشفاته الهامة إلى غيره ويصحح اعتقاد الناس الخاطىء بأنَّه أوَّل من اكتشفها، وأكتفي بإيراد مثلين فقط على ما أقول: أمَّا أولهما فيتعلق بحديث فرويد عن وجود معنى في أعراض الأمراض النفسية حيث يقول: «لقد كان بروير Breuer أوَّل من كشف عن معنى الأعراض العصابية في دراسته وعلاجه الناجح لحالة هستريا أصبحت من الحالات الشهيرة التي يشار إليها منذ ذلك الحين (عام ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢)، والحق أنَّ جانيه Janet قد ظفر بهذا الكشف نفسه مستقلاً عن بروير، بل لقد كان لهذا العالم الفرنسي أسبقية النشر، لأنَّ بروير لم ينشر ملاحظته إلاَّ بعد أكثر من عشر سنوات (عام ١٨٩٣ ـ ٩٥) يوم كنَّا نعمل معاً، ولا يعنينا كثيراً أن نعرف إلى من ينتمي هذا الكشف. فكل كشف يصنع أكثر من مرة، وليس ثمَّة كشف صيغ كله دفعة واحدة، والنجاح لا يعزى دائماً إلى من يستحقه فأمريكا لم تسم باسم مكتشفيها كولومبس. وقبل بروير وجانيه صرَّح لوريه Leuret الطبيب العقلي العظيم بأنَّه من الممكن أن نقع على معنى حتى في أهجسة المجانين، إذا عرفنا كيف نترجمها. (٥ ـ ص ٢٨٥) وأمَّا المثل الثاني فنقتطفه من أقوال فرويد عندما يتعرَّض للحديث عن الرمزية التي يستخدمها الحلم في التعبير حيث يقول: «الرمزية ليست وقفاً على الأحلام وحدها، وليست خاصة مقصورة عليها دون غيرها... الرمزية في الأحلام ليست من كشوف التحليل النفسي. ولو أنَّ هذا العلم لم يقصر، في الحق، عن الإتيان بكشوف رائعة. فإذا أردنا أن ننسب هذا الكشف إلى صاحبه في العصر الحديث فإنَّ صاحبه

هو الفيلسوف شرنر Scherner (١٨٦١). وقد جاء التحليل فعزز هذا الكشف وأيّده». (٥ ـ ص ١٥٨).

هذان مثالان من أمثلة كثيرة تنتشر في كتابات فرويد ينفي فيها عن التحليل النفسي سبقه إلى اكتشاف كثير من القضايا الهامة التي يظن أنّها من اكتشافه ويذكر بكل تواضع أنّه لو كان له من فضل فهو مجرد تعزيزها وإقامة الدلائل على صدقها من واقع خبراته الإكلينيكية والتحليلية. وما سبق أن ذكرناه عن القول باللاشعور وبالجنسية الطفلية يؤيد ذلك، إذ يرجع اكتشاف اللاشعور والحديث عنه إلى الفلاسفة السابقين على فرويد، ويرجع أوّل كشف للجنسية الطفلية إلى الدكتور لندنر. فلو كان فرويد يسعى إلى شهرة أو ظهور لأيّد سبق التحليل النفسي إلى اكتشاف كل ذلك أو على الأقل تغاضى عن تصحيح أفكار الناس عن حقيقة مكتشفيها. إنّ من يسعى للظهور والشهرة غالباً ما يفضل أن تكون شهرة طيبة تجلب له الكسب ورفعة الشأن، لكن تاريخ فرويد في بدء إقامته للتحليل النفسي يثبت أنّ نتيجة تمسكه بما آمن بصدقه من قضايا أدّت إليها بحوثه قد جلب على نفسه الاستهزاء والسخرية وسوء السمعة بين زملائه ووسط مجتمعه لفترة طويلة. لكن صلابته وجرأته جعلته يواصل طريقه غير عابىء بأية مضايقات أو خسائر في طريقه لاستكمال كشف خبايا النفس الإنسانية، فتحقق له ذلك.

أمّا تمسكه برأيه وجموده عليه، فلم يكن إلاّ تمسك الشخص الذي يعتقد بصدق ما يتمسك به، حتى إذا تبين له زيفه تخلّى عنه إلى الحق. وقصّة اكتشاف التحليل النفسي وإقامة قضاياه وتطويرها يثبت ذلك بشكل واضح. فما كان فرويد يكابر بالمعنى في رأي سبق أن نادى به ثبت له من بعد عدم استقامته. ولذلك كان فرويد يراجع قضاياه في ضوء ما تؤدي إليه خبرته الجديدة من إضافات وتعديلات. والتعديلات التي أدخلها في نظريته عن الجهاز النفسي وعن الغرائز (حوالي ١٩٢٠). تثبت ذلك، مع أنّه كان يعي أنّ خصومه قد يستخدمون تعديلاته سلاحاً لنقده، إلاّ أنّه ما كان يأبه إلاّ

بالسعي وراء اكتشاف الحقيقة وتقريرها. ويبدو أنَّ جرأة فرويد في هتك ستار النفس، وكشف زيف الشعور وسوءات ما يختفي من ورائه جعلته كمن يأتي العامة بخبر سيء فإذا بهم يغضبون من الخبر ثمَّ يزيحون هذا الغضب (وفق ميكانيزم الإزاحة في التحليل النفسي) دون وعي إلى الشخص الذي لم يكن له من ذنب سوى حمل الخبر. وبهذا الصدد يقول فرويد: «عيب دائماً على التحليل النفسي نقصه وعدم اكتماله، مع أنَّه من الواضح أنَّ علماً يقوم على أساس الملاحظة ليس أمامه إلَّا أن ينجز كشوفه جزءاً جزءاً، ويحل مشاكله خطوة خطوة منعت عنها زمناً طويلاً، اتهمت نظرية التحليل النفسي بأنَّها (ترى الجنسية في كل شيء). وعندما أكَّدت أمراً طال إغفاله، هو أهمية الدور الذي تلعبه المشاعر التي تعرض في الطفولة الباكرة، قيل لي إنَّ التحليل النفسي ينكر العوامل الخلقية والوراثية ـ الأمر الذي لم يخطر ببالي قط. لقد كان الأمر مجرَّد معارضة بأي ثمن وبأي طريقة». (٨ ـ ص ٦٨).

هذا، ولعلَّ من المناسب قبل أن نختم هذا المقال أن نورد فقرة كتبها هول ولندزي في كتابهما القيِّم «نظريات الشخصية» عندما تعرضا لفرويد محاولين تقييم منهجه ومكتشفاته فقالا: «غير أنَّه من الخطأ الجسيم القول بأنَّ أقوال المرضى تحت العلاج كانت هي المقومات الوحيدة التي صاغ منها فرويد نظرياته. إذ مما لا شكَّ فيه أنَّه لا يقل أهمية عن هذه المعطيات الخام، الاتجاه النقدي الصارم الذي اصطنعه فرويد في تحليل التداعي الطليق لمرضاه ويمكننا اليوم أن نقول إنَّه حلَّل مادته الخام باستخدام منهج الثبات الداخلي. فالاستنتاجات التي يستخلصها من جزء من المادة يقارنها بالدلائل المؤيدة التي تظهر في الأجزاء الأخرى، بحيث تكون الاستنتاجات النهائية المستخلصة من حالة ما مبنية على شبكة متداخلة من الوقائع والاستنتاجات. إنَّ فرويد كان يواصل عمله بنفس طريقة المخبر السري الذي يجمع الشواهد أو المحامي الذي يعرض الحالة على المحلفين. فلا بدَّ من أن يأتلف كل شيء بعضه مع البعض الآخر بصورة متماسكة قبل أن يرضى

عنه فرويد ويحس بأنه قد وضع إصبعه على التفسير الصحيح. وعلينا أن نتذكر بالإضافة إلى هذا أنَّ المادة التي تنتجها حالة واحدة تشاهد خمس ساعات في الأسبوع لفترة قد تطول إلى عامين أو ثلاثة هي على قدر هائل من الضخامة وأنَّ فرويد كانت تتاح له فرصة ضخمة ليتيقن ويعاود التيقن من صحة استنتاجاته عشرات المرات قبل أن يقرر التفسير النهائي. وعلى العكس من ذلك نجد أنَّ المفحوص في التجربة السيكولوجية التقليدية التي تتم في ظروف مضبوطة يفحص أو يختبر لفترة لا تزيد في المتوسط على ساعة أو ساعتين. ومما لا شكَّ فيه أنَّ إسهامين من أهم إسهامات فرويد في استراتيجية البحث هما الدراسة المتعمقة لحالة واحدة واستخدام طريقة الثبات الداخلي لاختبار الفروض. (١٩ ـ ص ٨١).

خاتمة:

خصَّصنا هذا المقال لمناقشة أبرز الانتقادات والافتراءات التي وجِّهت ولا تزال إلى التحليل النفسي ورائد مدرسته سيجموند فرويد، سواء كانت من ناحية المنهج أو من ناحية الاستنتاجات زالقضايا التي أثبتها التحليل النفسي. وكما عرضنا يتبين أنَّ هذه الانتقادات وتلك الافتراءات لم تقم على أساس سليم من الموضوعية. لقد قامت في جانب منها على فهم خاطىء لكثير من المفاهيم التي انطلقت منها كمفهوم المنهج العلمي (كمنهج واحد جامد لا يتنوع باختلاف طبيعية الظواهر المدروسة). وكمفهوم المادية في مقابل المثالية. كما قامت هذه الانتقادات وتلك الافتراءات في جانب ثانٍ منها على جهل أو عدم فهم لما قال به وكتبه فرويد والمحللون النفسيون. والأخطر من ذلك أنَّها قامت في جانب ثالث منها على مكابرة عنيدة، أو سوء نية واعية أو غير واعية، وإيثاراً للسلامة، وحفاظاً على فكرة الكمال والسمو التي يلذُّ للإنسان أن يظل متصفاً بها.

وفي رأينا أنَّ الهجوم والافتراء على التحليل النفسي بهذه الكيفية لا يخدم قضية العلم الإنساني في شيء، بل يهدف إلى تقويض الشرعية العلمية

التي اكتسبها التحليل النفسي، وبالتالي حرمان المعرفة الإنسانية من فرع علمي جريء اخترق النفس البشرية اختراقاً جريئاً فكشف عن أعماقها، وحرَّرها من جهالتها، ووضعها في مواجهة صريحة مع حقيقتها. وليس تقبل الحقيقة بالأمر السهل على الإنسان. ويكفي أن نقرأ في تاريخ العلم والعلماء لنعرف كيف كانت مجتمعاتهم تجابههم بنوع من الغضب العنيف الذي وصل إلى حد إعدام بعضهم حرقاً ونفي أو سجن أو عقاب الكثيرين منهم مع الاستهزاء والسخرية بمكتشفاتهم ونتائجهم، بمثل ما حدث في العصور الوسطى.

وكيفما كان الأمر، فقد أثبت التحليل النفسي فاعليته وتأثيره فهو يطبع الثقافة الإنسانية في عالم اليوم ـ على اتساعها ـ شئنا أم أبينا وما كان ليتاح له ذلك لولا أنَّ الاختبار المستمر لقضاياه الأساسية يثبت صدقها وواقعيتها وموضوعيتها يوماً بعد الآخر.

المـــراجع

١ ـ دكتور أحمد فـائق: التحليل النفسي بين العلم والفلسفـة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.

٢ ـ أيزنك: الحقيقة والوهم في علم النفس. ترجمة الدكتور قدري حفني والدكتور رؤوف نظمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

٣ ـ دانيـيل لاجاش: المجمل في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور مصطفى زيور وعبد السلام القفاش، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧.

٤ ـ دكتور سامي محمود علي: ثبت المصطلحات الواردة في نهاية ترجمة «الموجز في التحليل النفسي»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.

٥ ـ فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور أحمد عزت راجح، مراجعة محمد فتحي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

٦ ـ فرويد، سيجموند: محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور أحمد عزت راجح، مراجعة الأستاذ محمد فتحي، مكتبة مصر، القاهرة.

٧ ـ فرويد، سيجموند: الموجز في التحليل النفسي، ترجمة الدكتور سامي محمود علي وعبد السلام القفاش، مراجعة الدكتور مصطفى زيور، دار المعارف القاهرة ـ ١٩٦٢.

٨ ـ فرويد، سيجموند: حياتي والتحليل النفسي، ترجمة الدكتور مصطفى زيور والدكتور عبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

٩ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: تحليل الفرد باستخدام المقابلة، في قراءات في علم النفس الصناعي والتنظيمي ـ القاهرة ـ الجهاز المركزي للكتب الجامعية ـ ١٩٧٨.

١٠ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: العلاقة بين الإصابات في الصناعة والصفحة النفسية للذكاء، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد، ٦ عدد ٣، القاهرة، ١٩٦٩.

١١ ـ دكتور فرج عبد القادر طه: سيكلوجية العامل المشكل في الصناعة، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٩، عدد ٢، القاهرة ١٩٧٢.

١٢ ـ دكتور محمد عابد الجابري: التاريخ والفلسفة، السلسلة الجديدة من: أقلام، عدد ٣، الدار البيضاء، ١٩٧٦.

١٣ ـ دكتور محمد عابد الجابري: التاريخ والفلسفة، السلسلة الجديدة من: أقلام، عدد ٣، الدار البيضاء، ١٩٧٦.

١٤ ـ دكتور محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، دار المعارف: القاهرة، ١٩٧٠.

١٥ ـ دكتور مصطفى زيور: في التحليل النفسي، محاضرات إذاعية ـ القاهرة.

١٦ ـ دكتور مصطفى زيور: تصدير ترجمة «حياتي والتحليل النفسي» دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

١٧ ـ دكتور مصطفى زيور: تصدير ترجمة «الماركسية والتحليل النفسي»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

١٨ ـ دكتور مصطفى زيور: تقديم «انحراف الأحداث»، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١.

١٩ ـ هول ولندزي: نظريات الشخصية، ترجمة الدكاترة فرج أحمد فرج وقدري محمود حنفي ولطفي محمد فطيم، مراجعة الدكتور لويس كامل مليكه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.

٢٠ ـ **Barratt, P,** Bases Of Psychological Methods, John Wiley And Sons, 1971.

٢١ ـ **Bernal, J,** Science In History (Vol. 4), A Pelican Book, (Penguin Books), 1969.

٢٢ ـ **Durant, W,** The History Of Philosophy, Boek et Books, New York, 1976.

٢٣ ـ **Nell, A,** Theories Of Psychology, University Of London Press Ltd, 1971.